التَّوْحِيدُ فِي العِبادَاتِ

وَأَمَّا الْأَصْلُ الثَّانِي: وَهُوَ التَّوْحِيدُ فِي الْعِبَادَاتِ الْمُتَضَمِّنُ لِلإِيمَانِ بِالشَّرْعِ وَالْقَدَرِ جَمِيعًا[١]، فَنَقُولُ: لَا بُدَّ مِنَ الْإِيمَانِ بِخَلْقِ اللهِ وَأَمْرِهِ[٢].

فَيَجِبُ الْإِيمَانُ بِأَنَّ اللهَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَرَبُّهُ وَمَلِيكُهُ، وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَأَنَّهُ مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ[٣].

---

[١] قوله: «وَأَمَّا الْأَصْلُ الثَّانِي» معطُوفٌ على قولِهِ في أوَّلِ الكتابِ: «الْأَصْلُ الأَوَّلُ التَّوْحِيدُ فِي الصِّفَاتِ»، وعلى هذا فيكونُ الأصلانِ والمثَلانِ المضروبانِ والقواعدُ السِّتُّ كلُّها تتعلَّقُ بالتَّوْحِيد، والصِّفَاتُ كلها تتعَلَّقُ بالتَّوْحِيد، والصِّفَاتُ هنا التَّوْحِيد في العبادَاتِ، والشرعُ ما شرَعه الله تعالى على رُسُلِهِ من العباداتِ كالصلاةِ والزكَاةِ والصيامِ والحجِّ وما أشبَهَهُ، والقدَرُ ما يقْضِيهِ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ على عبادِهِ مما تقْتَضِيهِ الحِكْمة، وذلك أن أحكامَ الله نوعانِ: حُكمٌ شَرْعيٌّ، يجبُ على العبد الرِّضا به وتنْفِيذُه، وحُكم قدَرِيٌّ تنْفِيذُه على الله، ويجِبُ على العبدِ الرِّضَا بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وبما يُقدِّرُه عليه.

[٢] لَا بُدَّ من الْإِيمَانِ بهذين الأمْرَينِ بخلْقِ الله، وهو يتعلَّقُ بالقَدَرِ، وبأمْرِهِ، وهو الشَّرْعُ.

[٣] هذا يتعلق بالقدَر، تَعْلَمُ بأن اللهَ خالِقُ كلِّ شيءٍ، وربُّه ومليكُهُ وأنه على كلِّ شيءٍ قَدِيرٌ، وأنه ما شاءَ كان وما شاء لم يكُنْ، ولا حول ولا قوةَ إلا بالله، كل هذا يتعَلَّقُ بِالقَدَر.

وَقَدْ عَلِمَ مَا سَيَكُونُ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ، وَقَدَّرَ المَقَادِيرَ وَكَتَبَهَا حَيْثُ شَاءَ كَمَا قَالَ تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج:٧٠][١].

---

[١] إلى هنا انتهى الكلامُ على الخَلْقِ، فيجِبُ علينا بالنِّسْبَةِ للقَدَر الإِيمَانُ بما يلي:

أولًا: عُمُوم عِلْمِ الله لقولِهِ: «عَلِمَ مَا سَيَكُونُ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ»، كلُّ ما سيكونُ فقد عَلِمَه، فإن اللهَ تعالى قد عَلِمه، فيجِبُ أن نؤمنَ بعُمومِ عِلْم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ثانيًا: أن نؤمِنَ بأن الله كَتبَ مقادِيرَ كلِّ شيءٍ لقولِهِ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج:٧٠]، هذه الآيَة جمَعَت الدليلَ للأمْرَينِ جَميعًا، وهما العِلْمُ والكِتابةُ.

ثالثًا: أن نؤمنَ بأن كلَّ ما كان فهو بمشيئةِ اللهِ، لقولِ المؤلِّفِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أَنَّ مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَاءْ لَمْ يَكُنْ»، فكلُّ ما يُوجد في الكونِ مما يفْعَلُهُ الله تعالى أو يفعَلُه الخلقُ فإنَّه واقِع بمشيئة الله، هذه ثلاثة أمور.

الأمر الرابع: أن نؤمنَ بأن كلَّ شيءٍ مخلوقٌ لله، وأن الله خَالِقُ كلِّ شَيء وربُّهُ ومليكُهُ، إذن فكُلُّ ما وقع في الكون فهو مخلُوقٌ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

أربعُ مراتِبٍ، هي المراتب في القَضاءِ والقدَر، وإليه يُشير القائل:

عِلْمٌ كِتَابَةُ مَوْلَانَا مَشِيئَتُهُ ... وَخَلْقُهُ وَهوَ إِيجَادٌ وَتَكْوِينُ

فمَراتبُ الإيمانِ بالقضاءِ والقدَر جُمعَتْ في هذا البَيتِ.

هذه المراتبُ الأربَعُ هي مراتِبُ القدَر، ولا يتم الإِيمَانُ بالقَدَر إلا بهذه المراتِبِ.

وَفِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللهَ قَدَّرَ مَقَادِيرَ الخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ»(١)[١].

وَيَجِبُ الْإِيمَانُ بِأَنَّ اللهَ أَمَرَ بِعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، كَمَا خَلَقَ الجِنَّ وَالْإِنْسَ لِعِبَادَتِهِ، وَبِذَلِكَ أَرْسَلَ رُسُلَهُ وَأَنْزَلَ كُتُبَهُ.

وَعِبَادَتُهُ تَتَضَمَّنُ كَمَالَ الذُّلِّ وَالحُبِّ لَهُ، وَذَلِكَ يَتَضَمَّنُ كَمَالَ طَاعَتِهِ ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠][٢].

---

[١] قوله: «إِنَّ اللهَ قَدَّرَ مَقَادِيرَ الخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ»، كَتَبَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مقادِيرَ كُلِّ شيءٍ؛ مقادِيرَ الخلْقِ، وهذه الكتابَةُ في اللَّوحِ المحفُوظِ وثَمَّةَ كتاباتٌ أخْرَى تكون بحسب ما تقتَضِيهِ حِكمَةُ الله، ففي ليلَةِ القَدْرِ يُكتبُ مقادِيرُ السَّنَةِ، وإذا خُلِقَ الإنسَان في بطْنِ أمِّه بَعَثَ إليه الملك فكتَبَ رِزْقه وأجَلَه وعمَلَه، وشقِيًّا أم سعيدًا إنما الكتابَةُ الأولى العامَّةُ الشامِلَةُ قبلَ خلقِ السَّمواتِ والأرض بخمسين ألفَ سنة.

[٢] تَتَعَلَّقُ هذه الجملَةُ بالشَّرْعِ، تُؤمن بأمرِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأن الأمرَ له، والتَّشرِيعُ إليه، وعلى هذا فتَعْبدُه والعبادَةُ -كما يقولُ المُؤلِّف- رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تَتَضَمَّنُ كَمَالَ الذُّلِّ وَالحُبِّ لَهُ». لأنَّ العِبادَةَ في الحقيقَةِ مِنَ الذُّل ومن القَصْدِ، ففِيهَا إذن حُبٌّ وذُلٌّ، فبالحُبِّ يفعلُ الإنسانُ الأوامِرَ، وبالذُّلِّ يتجنَّبُ النَّواهِي؛ لأنَّ المحبوبَ مطْلُوبٌ، والمطلوبُ يفعَلُ الإنسَان الطُّرُق الَّتي تُوصِّلُ إليه، والمَخُوفُ والمُتَذَلَّل لَهُ يَهْرُبُ الإنسَان من مُخالفتِه.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام، رقم (٢٣٥٣).

وَقَدْ قَالَ تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾، وَقَالَ تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾[1]، .....

ولـهذا نقول: العِبادَة مَبنيَّة على هذَينِ الأمْرينِ، وهما كما قال المُؤلِّف: «كَمالُ الحُبِّ والذُّلِ». فبكمالِ الحُبِّ يحْصُلُ فعْلُ الأوامر؛ لأنَّ الأوامِرَ هذه سُلَّم يُوصِّلُكَ إلى الله عَزَّوَجَلَّ؛ الصلاةَ، والصيامَ، والزكاةَ، والحجَّ، وبِرَّ الوالدَينِ إلى آخره، هذه عِبارة عن سُلَّمٍ تصِلُ به إلى اللهِ، وبكَمالِ الذُّلِّ يحصلُ اجتِنَابُ المحظُورِ؛ لأنَّك تَذِلُّ فتخَافُ، والخائفُ لا يخالِفُ، يقول: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠]، الرَّسولُ المُرادُ بِهِ هنا: محمَّدٌ ﷺ، ولكن مع ذلِكَ مَنْ أطاعَ غيرَهُ من الرُّسلِ في زمَنِ قِيامِ رسالَتِهِ فقد أطاعَ الله.

[١] قـال اللهُ تعالـى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [النساء:٦٤]، لكن حتمًا بإذن اللهِ فكَمْ مِنْ رَسولٍ أُرسِلَ فلم يُطَعْ؛ لأنَّ الله لم يأذَنْ بذلِكَ، وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران:٣١]، هذه نزلَت في قومٍ ادَّعَوْا أنهم يُحِبُّونَ اللهَ، فأنزلَ اللهُ تعالى ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى ﴾، فأيُّ إنسانٍ يدَّعِي بأنه يحِبُّ الله لا يَتِمُّ قولُه إلا باتِّباعِ الرَّسولِ ﷺ، إن كان مُتبعًا له فقولُهُ حقٌّ، وإن كان مخالفًا له فقولُه باطلٌ.

ولهذا هؤُلاءِ المبتَدِعَةُ الَّذين يبْتَدِعُونَ الموالِدَ للرَّسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وغيرَها من المناسبات كمسألةِ المِعراج وما أشبَهَهَا، إذا قالوا: نحنُ نفعل ذلِكَ تعْظِيمًا للرسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ومحبةً له. نقول: كذَبْتُم في هذا، لو كان عنْدَكُم محبَّةٌ للرسولِ ﷺ للزمتم طريقَه وسُنَّتَه.

وَقَالَ تعالى: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾[1]، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾، وَقَالَ تعالى: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾[2].

وليست المسألة دَعْوَة، «لَوْ يُعْطَى النَّاسُ بِدَعْوَاهُمْ، لَادَّعَى نَاسٌ دِمَاءَ رِجَالٍ وَأَمْوَالَهُمْ»(1)، ولكان المُشْرِكَ يدَّعِي أنه يحِبُّ الله ويتَوَسَّلُ إليه تعالى بالصَّنم، ولكننا نقول: كلُّ إنسانٍ يدَّعِي أنه يحِبُ اللهَ ورَسولَهُ، فلنقِس هذا بعمله، إذا كان عمَلُه متابعًا للرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فهو حق وإلا فَهُو كاذِبٌ.

[١] وقال تعالى: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف:٤٥]، الرَّسول يقولُ الله له: اسأل، وهل أدرك الرَّسول أحدًا؟ فكيف يُؤمر بأمر لا يطيقُه؟

المَعْنى: أن كتُبَهُم مَوْجُودةٌ، ورِسَالاتِهم مَوْجُودَةٌ، وأخبارَهُم مَوْجُودةٌ، فابحثْ اسألْ مَنْ أرْسَلْنَا من قَبْلِكَ، ومن ذَلِك أحبارُهُم المنصِفُون، فإن العلماءَ ورثَةُ اللهِ، فعندما نقولُ: اسأل نبيًّا؛ يعني: اسألْ أتْبَاعَهُ، ولكنَّ المُرادَ: المنْصِفُونَ المعتَدِلُونَ.

وإذا قالَ قائِلٌ: هل جعلَ اللهُ من دونِ الرحمَنِ آلهَةً يُعْبَدُونَ؟ الجوَاب: لا.

[٢] وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾، برقم (٤٥٥٢)، ومسلم: كتاب الأقضية، باب اليمين على المدعى عليه، رقم (١٧١١).

وَقَالَ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون:٥١]، ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ [المؤمنون:٥٢]. فَأَمَرَ الرُّسُلَ بِإِقَامَةِ الدِّينِ وَأَنْ لَا يَتَفَرَّقُوا فِيهِ.

وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي الحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «إِنَّا مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ دِينُنَا وَاحِدٌ، وَالْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ[١]، وَإِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِابْنِ مَرْيَمَ لَأَنَا؛ إِنَّهُ لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ»(١)[٢].

فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥]، وَقال تعالى: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾ [الشورى:١٣].

ما هو المشْرُوعُ هنا ومَا الموصَى بِهِ؟ قولُهُ: «﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى:١٣]»، هذه الآيَة، وآية أُخْرَى في سورةِ الأحْزابِ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب:٧].

قال أهل العلم: في هاتين الآيتين ذِكْرُ أولي العَزْمِ مِنَ الرُّسل؛ لأنَّ أُولي العَزْمِ من الرُّسلِ خَمسَةٌ: النَّبِيُّ محمَّدٌ ﷺ، وإبراهِيمُ، وموسى، ونُوحٌ، وعِيسَى، هؤُلاءِ هم أولُو العَزْمِ، وهم المذْكُورونَ في هذه الآيَة كما أنهم مذكُورونَ في آية الأحزابِ.

[١] أولادُ العلَّاتِ: هُم الإخْوَةُ من الأمِّ، والأبُ متفرِّقٌ؛ يعني: الأصلُ واحدٌ والفروعُ متفرِّعَةٌ.

[٢] قوله: «إِنَّهُ لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ»، فهذا دليلٌ على بُطلان قولِ المؤرِّخِينَ الَّذين

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٤٠٦).

وَهَذَا الدِّينُ هُوَ دِينُ الْإِسْلَامِ الَّذِي لَا يَقْبَلُ اللهُ دِينًا غَيْرَهُ، لَا مِن الْأَوَّلِينَ وَلَا مِن الآخِرِينَ، فَإِنَّ جَمِيعَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَى دِينِ الْإِسْلَامِ.

قَالَ اللهُ تعالى عَنْ نُوحٍ: ﴿۞وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ﴾ [يونس:٧١]، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس:٧١].

وَقَالَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة:١٣٠]، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة:١٣١]، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٢].

وَقَالَ عَنْ مُوسَى: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس:٨٤]، وَقَالَ فِي حَوارِيِّ المَسِيحِ: ﴿وَأَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة:١١١].

وَقَالَ فِيمَنْ تَقَدَّمَ مِن الْأَنْبِيَاءِ: ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ [المائدة:٤٤]، وَقَالَ عَنْ بَلقِيسَ أَنَّهَا قَالَتْ: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل:٤٤][1].

يقُولُونَ: إن أناسًا مِنَ الجاهِلِيَّةِ كانوا أنْبياءَ مثلَ خالدِ بنِ سِنان وغيره، هؤُلاءِ كذَبوا في ذَلِك فليس بين عِيسى بنِ مَريمَ ومحمد ﷺ نبيٌّ، لا مِنَ العربِ ولا من غيرِهم.

[١] هذه الآياتُ ساقَهَا المؤلِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لنا أن الإسلامَ دينُ الأنبياءِ كلِّهم، ليس دِينَ محمدٍ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فقط، لكن بعدَ أن بُعثَ محمَّدٌ ونَسَخَ الأدْيانَ صار

فَالْإِسْلَامُ: يَتَضَمَّنُ الِاسْتِسْلَامَ للهِ وَحْدَهُ؛ فَمَن اسْتَسْلَمَ لَهُ وَلِغَيْرِهِ كَانَ مُشْرِكًا، وَمَنْ لَـمْ يَسْتَسْلِمْ لَهُ كَانَ مُسْتَكْبِرًا عَنْ عِبَادَتِهِ، وَالْمُشْرِكُ بِهِ وَالْمُسْتَكْبِرُ عَنْ عِبَادَتِهِ كَافِرٌ، وَالِاسْتِسْلَامُ لَهُ وَحْدَهُ يَتَضَمَّنُ عِبَادَتَهُ وَحْدَهُ وَطَاعَتَهُ وَحْدَهُ[١].

فَهَذَا دِينُ الْإِسْلَامِ الَّذِي لَا يَقْبَلُ اللهُ غَيْرَهُ؛ وَذَلِكَ إِنَّمَا يَكُونُ بِأَنْ يُطَاعَ فِي كُلِّ وَقْتٍ بِفِعْلِ مَا أَمَرَ بِهِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ[٢].

الإسلامُ هو دِينُ الرَّسولِ ﷺ فقط، وإلا ففي زمَن موسى الإسلامُ هو اليهُودِيَّةُ، وفي زمن عِيسَى الإسلام هو النَّصرانِيَّةُ، وفي زمَنِ إبراهيمَ الخليلِ الإسلامُ دينُه، وهكَذا الإسلامُ هو دِينُ الرُّسلِ، لكن خُصَّ الإسلام بالمَعْنى المفهومِ عُرفًا الآن بدِينِ محمَّدٍ ﷺ؛ لأنَّ كلَّ ما سِواه من الأديانِ أصبَحَتْ منسوخَةً باطِلَةً به فلم تكن الآن إسلامًا، فالنصارى مثلا ليسوا مُسْلِمينَ اليوم، لكنهم في زمَنِ عيسى مسْلِمُون، اليهود لَيْسُوا مسْلِمَينَ اليوم لكنهم في زَمَنِ موسى مسلمونَ، وبهذا كلُّ الآياتِ تدُلُّ على أن الإسلامَ دِينُ الأنْبياءِ، إذا كان الإسلامُ دِينُ الأنبياءِ، فما هو الإسلامُ بالمعْنَى الأعَمِّ؟

[١] نأخذ من ذَلِك أولًا: ما هُو الإسْلامُ؟ الإسلام: هو الاسْتِسْلَامُ للهِ وحْدَه بهذا القَيدِ، فمن لم يَسْتَسْلِمْ له فهو مستكْبِرٌ عن عبادتِه، ومنِ استَسْلَم له ولغيرِهِ فهو مُشْركٌ في عِبادَتِهِ، والمستكْبِرُ عن عبادتِهِ والمشركُ به في عبادتِهِ كلاهُما كافِرٌ، هذا التعريف للإسلام هل يختَصُّ بالإسلامِ الَّذي بُعِث به محمَّدٌ ﷺ أو هو عامٌّ؟ هو عامٌّ؛ فالإسلامُ هو الاستِسْلامُ للهِ وحدَهُ، لكنه بعْدَ أن بُعِث محمَّدٌ ونسَخَ جميعَ الأديان صارَ خاصًّا بما علَيْهِ محمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

[٢] أي: هذا المشارُ إليه أي: الاستِسْلَامُ لله وحدَهُ، الإسلام للهِ في زمَنِ موسى

فَإِذَا أَمَرَ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ بِاسْتِقْبَالِ الصَّخْرَةِ، ثُمَّ أَمَرَنَا ثَانِيًا بِاسْتِقْبَالِ الْكَعْبَةِ كَانَ كُلٌّ مِنَ الْفِعْلَيْنِ حِينَ أَمَرَ بِهِ دَاخِلًا فِي الْإِسْلَامِ[١].

فَالدِّينُ هُوَ الطَّاعَةُ وَالْعِبَادَةُ لَهُ فِي الْفِعْلَيْنِ؛ وَإِنَّمَا تَنَوُّعُ بَعْضِ صُوَرِ الْفِعْلِ، وَهُوَ وَجْهُ الْمُصَلَّى، فَكَذَلِكَ الرُّسُلُ دِينُهُمْ وَاحِدٌ وَإِنْ تَنَوَّعَتِ الشِّرْعَةُ وَالْمِنْهَاجُ وَالْوَجْهُ وَالْمَنْسَكُ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَمْنَعُ أَنْ يَكُونَ الدِّينُ وَاحِدًا كَمَا لَمْ يَمْنَعْ ذَلِكَ فِي شَرِيعَةِ الرَّسُولِ الْوَاحِدِ[٢].

هو طاعته باتِّباع التورَاةِ، وفي زمَنِ عِيسَى طاعَتُه باتِّباع الإنجِيلِ، وفي زمن محمَّدٍ طاعَتُهُ باتِّباعِ القُرآنِ.

[١] المسلِمُونَ حين قَدِمُوا المدينة كانوا يُصلُّونَ إلى بيتِ المقْدِسِ، وبعد ذَلِك صُرِفُوا إلى الكعْبَةِ، فصَلاتُهُم إلى بيتِ المقْدِسِ إسلامٌ، وصلاتُهم إلى الكعبَةِ بعد أن نُسِخَ إسلامٌ، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾ [البقرة:١٤٣]، قال العلماءُ: معْنَى إيمانكم: صَلاتُكُم إلى بيتِ المقْدِسِ فسمَّاهُ الله تعالى إيمانًا، مع أن الإنسانَ لَوْ أرادَ أن يُصَلِّيَ هكَذا إلى بيت المقدسِ صار مجْرِمًا وصار فاعلًا للمُحرَّم، وإذا استحلَّه أو أوْجَبَهُ كان كافرًا.

فالحاصلُ أن نقولَ: الإسلامُ هو الاستِسْلَامُ للهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وحدَه، وذلك بطاعَتِهِ في كلِّ وقتْ بما أمَرَ به في ذَلِك الوَقْتِ، سواءٌ كانَ ذلِكَ في الشريعَةِ كامِلَة، أو كان في جُزْءٍ من أجزاء الشَّريعَةِ.

[٢] الدِّينُ واحِدٌ، وهو الإسلامُ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، سواءٌ بهَذَا أو بهذا في شريعَةٍ واحِدَةٍ أو في شرائعَ فالإسلامُ هو طاعَةُ اللهِ تعالى في ذَلِك الدِّينِ.

وَاللهُ تعالى جَعَلَ مِنْ دِينِ الرُّسُلِ أَنَّ أَوَّلَهُمْ يُبَشِّرُ بِآخِرِهِمْ وَيُؤْمِنُ بِهِ، وَآخِرَهُمْ يُصَدِّقُ بِأَوَّلِهِمْ وَيُؤْمِنُ بِهِ، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران:٨١].

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «لَمْ يَبْعَثِ اللهُ نَبِيًّا إِلَّا أَخَذَ عَلَيْهِ المِيثَاقَ: لَئِنْ بُعِثَ مُحَمَّدٌ وَهُوَ حَيٌّ لَيُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَيَنْصُرُنَّهُ».

وَأَمَرَهُ أَنْ يَأْخُذَ المِيثَاقَ عَلَى أُمَّتِهِ لَئِنْ بُعِثَ مُحَمَّدٌ وَهُمْ أَحْيَاءٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَيَنْصُرُنَّهُ، وَقَالَ تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨][1].

---

[١] كلُّه يُفيدُ بأن الرُّسلَ أولهم مُبشِّرٌ بآخِرِهِ، ويؤمِنُ به حتى عِيسَى آخر الأنبياء قال لقَومِهِ: ﴿إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف:٦]، ولهذا النصارَى يُعتبَرُونَ الآن كافِرِين بعيسى كما هم كَافِرُونَ بمحمَّدٍ؛ لأنَّ عِيسى بشَّرهُم بِشارَةً خاصَّة بهذا الرَّسولِ، وهل يُبشِّرُ الإنسانُ بما لا ينتَفِعُ به؟ وهل يمكن أن ينتَفِعُوا بمحمَّدٍ إلا باتباعه؟

الجوَاب: لا، بل إنهم إذا خَالَفُوه تَضَرَّرُوا، وكان ضَررًا عليهم لَا بُدَّ منه.

فالمهِمُّ: أن ما قالَهُ المؤلِّفُ يدُلُّنَا على أن الإسلامَ هُو الاستسلامُ لله تعالى، وذلِكَ بطاعَتِهِ في كلِّ وقتٍ بما أمَرَ به في ذلِكَ الوقْتِ.

وَجَعَلَ الْإِيمَانَ مُتَلَازِمًا، وَكَفَّرَ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ آمَنَ بِبَعْضٍ وَكَفَرَ بِبَعْضٍ، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء:١٥٠-١٥١][1]، وَقَالَ تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:٨٥].

وإذا سألَ سائلٌ عن مَعْنَى ﴿إِصْرِى﴾، فالجوَابُ: إِصْرِي يعني: عَهْدِي، وسُمِّيَ العَهْدُ إِصْرًا.

[١] قولُهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾. الآيَةُ الأُولى تدُلُّ على أن مَنْ فرَّق بينَ الرُّسُلِ فهو كافِرٌ، ويريدونَ أن يفرِّقوا بينَ الله ورسُولِهِ، والآيَة الثَّانية تدُلُّ على أنَّ منْ كفَرَ ببعضِ شريعَةِ النَّبِيِّ وآمَنَ ببعضٍ فهو أيضًا مستَحِقٌّ للعُقوبَةِ، ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ﴾.

وعلى هذا فالإسلامُ للهِ هو أن يَستسْلِم الإنسانُ للهِ ظاهِرًا وباطنًا بطاعَةِ الله تعالى في كلِّ وقتٍ بما أَمَرَ به في ذلِكَ الوقتِ، وبهذا المَعْنى يكون الإسلامُ شامِلًا، يكون هذا التعريفُ شامِلًا للإسلامِ في عهْدِ الرَّسولِ ﷺ وما كان قَبْلَهُ.

وإذا سألَ سائلٌ: هلْ كُلُّ الكفَّارِ مخاطَبونَ بأصُولِ الشَّريعَةِ وفُروعِهَا؟

الجوَاب: نعم، كلُّ الكفَّارِ مخاطَبُونَ بأصولِ الشَّريعَةِ وفروعِ الشَّريعَةِ؛ لأنَّ اللهَ يعاقِبُهم عليها قال: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ

وَقَدْ قَالَ لَنَا: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:٨٤][1]، .....

وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾ [المدثر:٤٢- ٧٤]، فمخاطَبون بكُلِّ شَيء، وكيفَ أن المُسْلم إذا عصَى الله بهذا الذَّنْبِ يُعذَّبُ والكافر لا يُعَذَّبُ به؟ فهذا من بابِ أَوْلى.

تقدَّم أن المؤلِّفَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكَرَ أن الأصلَ الثَّانِي هو التَّوْحِيدُ بالعِبادَةِ، وأما الأصلُ الأوَّلُ فهو التَّوْحِيدُ في الصِّفَاتِ، وذَكَر أن الإسلامَ هو الاسْتِسْلَامُ للهِ وحْدَهُ، فمن لم يَستَسْلِمْ لله فهو مُستكبِرٌ، ومن استَسْلمَ له ولغيرِهِ فهو مُشْركٌ، وكل منهما كافِرٌ.

وذكرَ أيضًا أن الإسلامَ هو طاعَةُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فيما أَمَرَ به في ذَلِك الوقتِ الَّذي أمَرَ به، وأن هذا يشمَلُ الشرائعَ عامَّة أو بعضَ أجزاء الشريعةِ، وذكر لهذا أمثلة، فالرُّسلُ السابِقُونَ -عليهم الصلاة والسلام- وأتباعُهم مسْلِمُونَ؛ لأنَّهم أطاعُوا الله تعالى في ذَلِك الوقتِ الَّذي أمَرَهُمْ الله به، والمسلِمُونَ حين كانوا يتَّجِهُونَ إلى بيت المقدس كانوا مسْلِمينَ لله قبل أن تُحوَّلَ القِبْلَةُ، فالمهِمُّ: أن الإسلامَ هو الاستسلام لله تعالى في الالتزامِ بطاعَتِهِ في كلِّ وقتٍ فيما أمَرَ به.

[١] الأسبَاطُ في بَنِي إسرائيلَ، وقد قيل: إنهم هُمْ أولادُ يعقوبَ، وقيل: إنهم غيرُهُمْ، وأما قوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾، فالضَّمْيرُ في قوله: ﴿لَهُۥ﴾ يعودُ على اللهِ، ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ﴾ أي: لله مسْلِمُونَ، وفي تقديمِ المعْمُولِ ﴿لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ دليلٌ على الحَصْرِ، وأننا لا نُسلِّمُ إلا لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة:١٣٧][١].

فَأَمَرَنَا أَنْ نَقُولَ: آمَنَّا بِهَذَا كُلِّهِ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ، فَمَنْ بَلَغَتْهُ رِسَالَةُ مُحَمَّدٍ ﷺ فَلَمْ يُقِرَّ بِمَا جَاءَ بِهِ لَمْ يَكُنْ مُسْلِمًا وَلَا مُؤْمِنًا؛ بَلْ يَكُونُ كَافِرًا وَإِنْ زَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ أَوْ مُؤْمِنٌ[٢].

كَمَا ذَكَرُوا أَنَّهُ لَمَّا أَنْزَلَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران:٨٥][٣]، .....

---

[١] في قوله: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ [البقرة:١٣٧]، دَليلٌ على أن هَذَا هو الإِيمَانُ، وأنه بعدَ بَعْثَةِ الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لا يصِحُّ الإسلامُ إلا على هَذا الوجْهِ.

[٢] أمرَنَا اللهُ تعالى أن نقولَ: آمَنَّا باللهِ وما أُنْزِلَ إلينا... إلى آخره، فمن بلَغَتْهُ هذه الرسالةُ رسالةُ الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ولم يؤمِنْ به لم يبقَ مُؤمِنًا حتى لو قالَ إنه مؤمِنٌ، فإنَّه لا يمْكِنُ أن يكون مؤمنًا مَع كُفْرِهِ بالرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

[٣] قوله: «كَمَا ذَكَرُوا» يعني: المفَسِّرينَ ذكَرُوا هذا، ولكن هذا ليسَ لَهُ سَندٌ يُعْتَمَدُ عليه وإنما هو منْقَطِعٌ، وعلى كلِّ حالٍ فالآيَةُ عامَّةٌ، وهي قَولُهُ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

والإسلامُ: الاستِسْلامُ للهِ وحْدَه، وهو أيضًا طاعَتُه في كلِّ وقتٍ بما أمَر به، فبعدَ بَعْثَةِ الرَّسولِ الإسلام هو دِينُ الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، واليهودُ والنصارى ليسوا مُسلِمِينَ حتى لو قالوا: إنا مُسلِمُونَ؛ لأنَّهم لم يؤمِنُوا بما جاءَ به محَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى: فَنَحْنُ مُسْلِمُونَ، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران:٩٧]، فَقَالُوا: لَا نَحُجُّ، فَقَالَ تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

فَإِنَّ الِاسْتِسْلَامَ للهِ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِالْإِقْرَارِ بِمَا لَهُ عَلَى عِبَادِهِ مِنْ حَجِّ الْبَيْتِ؛ كَمَا قَالَ ﷺ: «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ، وَحَجِّ الْبَيْتِ»(١).

وَلِهَذَا لَمَّا وَقَفَ النَّبِيُّ ﷺ بِعَرَفَةَ أَنْزَلَ اللهُ تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ[١] أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣].

وَقَدْ تَنَازَعَ النَّاسُ فِيمَنْ تَقَدَّمَ مِنْ أُمَّةِ مُوسَى وَعِيسَى هَلْ هُمْ مُسْلِمُونَ أَمْ لَا[٢]؟

---

[١] قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ يعني به: يومَ عَرَفَة، فـ(ال) للعَهْد الحُضُوري؛ يعني اليوم هذا اليومُ الحاضِرُ، أتْمَمْتُ لكم دينكُم... إلى آخِرِهِ.

[٢] والصَّواب أن نقُولَ: إنهُمْ مسْلِمُونَ، الَّذين تقَدَّمُوا من أتباعِ مُوسى وعيسى وغيرهما أيضًا كلُّهُم مسْلِمُونَ، وقد ذكر المُؤلِّف فيما سبَقَ آياتٍ كثيرةٍ منذُ نوحٍ إلى عِيسَى، كُلّها تدُلُّ على أن الإسلام في هذه الأُمَمِ، وأنهم يُوصفونَ بالإسلام، لكن كما قالَ المؤلِّفُ: بعد بعثةِ الرَّسولِ ﷺ لا يُوصَفُ بالإسلامِ إلا مَنْ كان على دِينِ محَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: «بني الإسلام على خمس»، رقم (٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب أركان الإسلام ودعائمه العظام، رقم (١٦).

وَهُوَ نِزَاعٌ لَفْظِيٌّ[١]؛ فَإِنَّ الْإِسْلَامَ الخَاصَّ الَّذِي بَعَثَ اللهُ بِهِ مُحَمَّدًا ﷺ الْمُتَضَمِّنُ لِشَرِيعَةِ الْقُرْآنِ لَيْسَ عَلَيْهِ إِلَّا أُمَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ؛ وَالْإِسْلَامُ الْيَوْمَ عِنْدَ الْإِطْلَاقِ يَتَنَاوَلُ هَذَا.

وَأَمَّا الْإِسْلَامُ الْعَامُّ الْمُتَنَاوِلُ لِكُلِّ شَرِيعَةٍ بَعَثَ اللهُ بِهَا نَبِيًّا، فَإِنَّهُ يَتَنَاوَلُ إِسْلَامَ كُلِّ أُمَّةٍ مُتَّبِعَةٍ لِنَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ.

وَرَأْسُ الْإِسْلَامِ مُطْلَقًا شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ[٢]، .....

---

[١] قوله: «وَهُوَ نِزَاعٌ لَفْظِيٌّ». صَحِيحٌ النِّزَاعُ لفْظِيٌّ يعنِي: ليس له مَا يؤدِّي إلى تَفَرُّقٍ في المَعْنَى، فالَّذين يقُولُونَ إنهم ليسوا مسْلِمِينَ يعنُونَ: أنهم ليسوا مسلِمِينَ باعتبارِ اليومِ، والَّذين يقُولُونَ إنهم مسْلِمُونَ يقُولُونَ: إنهم مسلمونَ باعتبار قيامِ شَرِيعَتِهِمْ، فهُم في وقتِ قِيامِ شَرِعيتِهم مسلِمونَ، وأما اليوم فليسوا بمُسْلِمينَ؛ لأنَّه نُسخت الأدْيانُ بهذه الشَّرِيعَةِ.

فالمُؤلِّف يُبيِّن لماذا قال الله إنَّهم كفَرَة بأن الله غَنِيٌّ عن العالمين فجَعَله كافرًا قال: لأنَّ الإسلامَ لا يَتِمُّ إلا بالإقرارِ بما فَرَضَ الله على عبادِهِ مثل الحج.

[٢] قوله: «وَرَأْسُ الْإِسْلَامِ مُطْلَقًا» يعْنِي به: الإسلامَ الَّذي بعَدْ بعْثَةِ الرَّسول ﷺ والإسلامَ الَّذي قَبْلَهُ، فإن رأسَ الإسلام ورأسَ الرِّسَالاتِ الَّتي جاءت بها الرُّسلُ هي شهَادَةُ أن لا إله إلا اللهُ، وبها بُعِثَ جميعُ الرُّسُلِ كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل:٣٦].

قوله: ﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ المُرادُ بالطاغُوتِ: كلُّ ما تجاوزَ به العَبدُ حَدًّا من مَعْبُودٍ أو مَتْبوعٍ أو مُطاعٍ هذا هو الطاغُوتُ، كلُّ شيءٍ يتجَاوَزُ الإنسَان بِهِ حَدَّه من

وَبِهَا بُعِثَ جَمِيعُ الرُّسُلِ، كَمَا قَالَ تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥]، وَقَالَ عَنِ الخَلِيلِ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ [الزخرف:٢٦]، ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾ [الزخرف:٢٦]، ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف:٢٨][١].

وَقَالَ تعالى عَنْهُ[٢]: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء:٧٥- ٧٧].

وَقَالَ تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة:٤].

معبودٍ؛ فالأصنامُ نسَمِّيهَا طواغِيت، أو متْبُوعٍ كالأحْبارِ والرُّهْبانِ المضِلِّينَ، أو مطَاعٍ كالأُمَراءِ الفَسَقَةِ، فكُلُّهُم يُسمَّونَ طَواغِيتَ؛ لأنَّهم تجاوَزُوا الحَدَّ، وطغَوا، والطغيانُ في الأصلِ مجاوَزَةُ الحَدِّ، فأمرنا الله تعالى بعِبادَتِهِ وحدَهُ واجتنابِ الطاغوتِ.

هذه في المَعْنى على وزان قولِ لا إله إلا الله.

قوله: «لَا إِلَهَ» تَبَرُّأٌ من جميعِ الآلهَةِ «إِلَّا اللهُ» إثباتُ الأُلوهِيَّةِ لله عَزَّوَجَلَّ فقوله هنا: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾ بمَعْنَى: لا إله إلا اللهُ.

[١] قوله: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ أي: هَذِه البَرَاءةُ من عِبَادَةِ غيرِ الله جعلها كلِمَةً باقِيَةً في عقِبِه؛ أي: عقِبِ إبراهيم، يدْخُل فيهِمُ اليهُودُ والنَّصارَى؛ لأنَّ اليهودَ والنَّصَارى من بَنِي إسرائيل، وإسرائيلُ هو: يَعْقُوبُ بنُ إسحاقَ بنِ إبْراهيمَ.

[٢] القائلُ هو إبراهِيمُ.

وَقَالَ تعالى: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف:٤٥][١].

وَذَكَرَ عَنْ رُسُلِهِ كَنُوحٍ وَهُودٍ وَصَالِحٍ وَغَيْرِهِمْ أَنَّهُمْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ: ﴿ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ﴾ [الأعراف:٥٩]، وَقَالَ عَنْ أَهْلِ الْكَهْفِ: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟[٢] مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا[٣]﴾ [الكهف:١٣- ١٤].

إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الكهف:١٥]، وَقَدْ قَالَ -سُبْحَانَهُ-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨]، ذَكَرَ ذَلِكَ فِي مَوْضِعَيْنِ مِنْ كِتَابِهِ[٤].

---

[١] تقدَّمَ الكلامُ على إشكالٍ حولَ هذا.

وإذا سأل سائلٌ: كيف يأمُرُ الله بسُؤالِهِمْ وقد مَاتُوا؟ وهل هذا الأمر فيما يُطاقُ؟

فالجوَاب: أن المُرادَ الرجوعُ إلى أتبَاعِهِم مِنَ العُلماءِ، والكتب الَّتي بَقِيَتْ في أيْدِيهِمْ.

[٢] قوله: ﴿نَّدْعُوَا۟﴾ الواو هنا ليسَتْ ضَمِيرًا هي مِنَ الفِعْلِ، ولهذا نُصِبَتْ ﴿لَن نَّدْعُوَا۟﴾، أما لو كانتْ ضَمِيرًا أقول على القوم: يدْعُونَه، ثم تقول: القومُ لن يدْعُوا أحدًا. فالألف إنما تأتي بعد واو الضميرِ لا بعْدَ واوِ الفِعْلِ.

[٣] قوله: ﴿شَطَطًا﴾: أي: قَولًا بَعِيدًا عَنِ الصَّوابِ.

[٤] ذكر ذَلِك في موضِعَينِ من كتابِهِ، وكلا الموضِعَينِ في سورةِ النساءِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨].

وَقَدْ بَيَّنَ فِي كِتَابِهِ الشِّرْكَ بِالْمَلَائِكَةِ، وَالشِّرْكَ بِالْأَنْبِيَاءِ، وَالشِّرْكَ بِالْكَوَاكِبِ، وَالشِّرْكَ بِالْأَصْنَامِ- وَأَصْلُ الشِّرْكِ: الشِّرْكُ بِالشَّيْطَانِ- فَقَالَ عَنِ النَّصَارَى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة:٣١].

فدلَّ هذا على عِظَمِ الشِّركِ، وهل يشمَلُ الشِّركَ الأصغرَ فيكون غيرَ مغفورٍ أم المُراد الشركُ الأكبَرُ؟

﴿لَا يَغْفِرُ﴾ نفي، و﴿أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ مُؤَوَّل بمصَدَرٍ: إشراكًا به، والمعروف أنَّ النَّكِرَةَ في سياق النَّفْي تُفيدُ العُمومَ.

ولهذا قال شيخُ الإسلامِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الشركُ لا يَغْفِرُهُ الله ولو كانَ أصغرَ، فالَّذي يحلِفُ بغيرِ الله لا يُغفَرُ له هذا إلا إذا تابَ منه.

وقد رُوي عنِ ابنِ مسْعودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه قَالَ: «لأَنْ أَحْلِفَ بِاللهِ كَاذِبًا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَحْلِفَ بِغَيْرِهِ صَادِقًا»[1]؛ لأنَّ الحَلِفَ بغيرِ الله كاذِبًا من الكبائرِ والحَلِفُ بغيرِهِ صادِقًا من الشِّركِ، وخطيئة الشِّرْك أعظَمُ من خَطِيئةِ الكبائرِ.

فالمهم: أن هذا فيه دَلِيلٌ على عِظَم الشِّرْكِ وأنه لا يُغْفَرُ، وظاهِرُ الآيَة الكريمةِ ولو كان أصغَرَ، ولكن ليس معْنَى لا يُغفَرُ أنه إذا تابَ الإنسانُ مِنْهُ لا يُغفَرُ له، لكنه إذا تاب منه غُفِرَ لَهُ.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ٥٤٩).

وَقَالَ تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ[١] قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة:١١٦- ١١٧].

وَقَالَ تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:٧٩]، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا[٢] أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:٨٠]، فَبَيَّنَ أَنَّ اتِّخَاذَ المَلَائِكَةِ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا كُفْرٌ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ أَحَدًا مِن الخَلْقِ لَـمْ يَزْعُمْ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ وَالْأَحْبَارَ وَالرُّهْبَانَ وَالمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ شَارَكُوا الله فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ[٣].

---

[١] قولُ الله تعالى لعِيسَى هذا يكون يومَ القيامَةِ، والغرَضُ منه تَوبِيخُ عابدِيه، أما الله -سبحانه- فيَعْلَمُ أنه لم يَقُلْ لهم إلا ما أمَرَ به، لكنَّ المرَادَ بذلك تَوبِيخُ عابِدِي عِيسى مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير:٨- ٩]، الموءودَةُ تُسْأَلُ تَوْبِيخًا لمن قَتَلَها، وليس توبِيخًا لها هِي؛ لأنَّها هي مُفْتَرى عليها، فهنا السُّؤالُ لتَوبِيخِ من اتَّخَذُوه إلهًا من دونِ اللهِ.

[٢] وبيَّن ذلِكَ بقولِهِ -سبحانه-: ﴿أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ﴾ [آل عمران:٨٠].

[٣] بل إنهم إذا سُئِلوا: مَنْ خَلَقَ السَّمواتِ والأرض؟ يقُولُونَ: الله، ولا زَعَمَ أحدٌ من النَّاسِ أن العالَمَ له صَانِعانِ متكافئانِ في الصِّفَاتِ والأفعالِ صحيحٌ هذا، لكن مِنَ المشهورِ أن المجوسَ يقُولُونَ: إنَّ للعَالَمِ صانِعَيْن أو خالِقينِ، لكنهم -أي: المجوس-

بَلْ وَلَا زَعَمَ أَحَدٌ مِن النَّاسِ أَنَّ الْعَالَمَ لَهُ صَانِعَانِ مُتَكَافِئَانِ فِي الصِّفَاتِ وَالْأَفْعَالِ.

بَلْ وَلَا أَثْبَتَ أَحَدٌ مِنْ بَنِي آدَمَ إِلَهًا مُسَاوِيًا للهِ فِي جَمِيعِ صِفَاتِهِ[١].

بَلْ عَامَّةُ الْمُشْرِكِينَ بِاللهِ: مُقِرُّونَ بِأَنَّهُ لَيْسَ شَرِيكُهُ مِثْلَهُ بَلْ عَامَّتُهُمْ يُقِرُّونَ أَنَّ الشَّرِيكَ مَمْلُوكٌ لَهُ، سَوَاءٌ كَانَ مَلَكًا، أَوْ نَبِيًّا، أَوْ كَوْكَبًا، أَوْ صَنَمًا، .....

لا يرَوْن أن هذَيْن الخَالِقينِ متكافِئانِ في الصِّفَات والأفعالِ، بل يقُولُونَ: إن النورَ أفضَلُ من الظُّلْمَةِ؛ لأنَّ الخَالِقين عندهم هما النُورُ والظلْمَةُ، لكنهم يقُولُونَ: إن النُّور خيرٌ وأفضَلُ من الظُّلمة؛ ولذَلِك يخْلُقُ الخيرَ، والظلمة تخْلُقُ الشَرَّ، بل ولا أثبتَ أحدٌ من بَنِي آدم إلهًا مساويًا للهِ في جميعِ صِفاتِهِ.

[١] كيف يكون كلامُ المُؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ صحيحًا: إنه لا يوجَدُ أحدٌ يُثْبِتُ إلهًا مساويًا لله تعالى في الصِّفَاتِ، وقد عَلِمْنَا أن فرعونَ قال لقومِهِ: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ [القصص:٣٨]؟

نقول: إن فِرعونَ في قَرارَةِ نفْسِه لا يرى ما يَقُولُ، ولهذا قالَ له موسى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء:١٠٢]، فسَكَتَ فِرْعونُ.

كذَلِك يقولُ اللهُ تعالى عنهم: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل:١٤]، فلا يمكن لأي أحَدٍ أن يستَقِرَّ على هذا القولِ على أن للعالَمِ خالِقَينِ متَسَاوِيَينِ في الصِّفَاتِ والأفعالِ أبدًا، بل ولا يمكن لأي عاقِلٍ أن يُقِرَّ بأنه لا خالِقَ للخلْقِ، أبدًا حتى الشيوعيون الآن لا شكَّ أن العُقلاءَ منهم يدْرُونَ بأن للعَالمِ خالقًا، لكنهم طبعًا مثل اليهود لا يُقِرُّونَ.

وكَمَا كَانَ مُشْرِكُو الْعَرَبِ يَقُولُونَ فِي تَلْبِيَتِهِمْ: «لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ، إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ»(١)[١].

فَأَهَلَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالتَّوْحِيدِ وَقَالَ: «لَبَّيْكَ اللهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ، إِنَّ الحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ»(٢)[٢].

وَقَدْ ذَكَرَ أَرْبَابُ المَقَالَاتِ: مَا جَمَعُوا مِنْ مَقَالَاتِ الْأَوَّلِينَ والآخِرِينَ فِي المِلَلِ وَالنِّحَلِ وَالْآرَاءِ وَالدِّيَانَاتِ، فَلَمْ يَنْقُلُوا عَنْ أَحَدٍ إِثْبَاتَ شَرِيكٍ مُشَارِكٍ لَهُ فِي جَمِيعِ المَخْلُوقاتِ، وَلَا مُمَاثِلَ لَهُ فِي جَمِيعِ الصِّفَاتِ.

بَلْ مِنْ أَعْظَمِ مَا نَقَلُوا فِي ذَلِكَ قَوْلَ الثَّنَوِيَّةِ الَّذِينَ يَقُولُونَ بِالْأَصْلَيْنِ «النُّورِ» و«الظُّلْمَةِ»، وَأَنَّ النُّورَ خَلَقَ الخَيْرَ، وَالظُّلْمَةَ خَلَقَتِ الشَّرَّ، .....

---

[١] انظر التناقض «لَا شَرِيكَ لَكَ إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ»، إذا كان له كَيْفَ يصيرُ شَرِيكًا؟ نقول لهم: وماذا تقُولونَ هل المَمْلُوكُ يكون شَرِيكًا للمالِكِ؟

لا، هذا تناقُضٌ فالمالكُ لا يمْكِنُ أن يَصِيرَ المملوكُ شَرِيكًا لَه، ولهذا يقولُ اللهُ تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ [الروم:٢٨].

[٢] فلم يَقُلْ: «إلا شَرِيكًا هو لك»، لكن قالَ بدَلَهَا: «إِنَّ الحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ»، هذا التَّوْحِيد.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب التلبية وصفتها ووقتها، رقم (١١٨٥).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الحج، باب التلبية، رقم (١٥٤٩)، ومسلم: كتاب الحج، باب التلبية وصفتها، رقم (١١٨٤).

ثُمَّ ذَكَرُوا لَـهُمْ فِي الظُّلْمَةِ قَوْلَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهَا مُحْدَثَةٌ، فتكُونُ مِنْ جُمْلَةِ المَخْلُوقاتِ لَهُ.

وَالثَّانِي: أَنَّهَا قَدِيمَةٌ، لَكِنَّهَا لَـمْ تَفْعَلْ إِلَّا الشَّرَّ، فَكَانَتْ نَاقِصَةً فِي ذَاتِهَا وَصَفَاتِهَا وَمَفْعُولَاتِهَا عَنِ النُّورِ[١].

وَقَدْ أَخْبَرَ -سُبْحَانَهُ- عَنِ الْمُشْرِكِينَ مِنْ إِقْرَارِهِمْ بِأَنَّ الله خَالِقُ المَخْلُوقاتِ مَا بَيَّنَهُ فِي كِتَابِهِ فَقَالَ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[٢] ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾[٣] .....

---

[١] سبقَ أن المؤلِّفَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ نَقَلَ عن الَّذين يتكَلَّمونَ في مقالاتِ النَّاسِ في الإلهيات أنهم لم ينْقُلوا أن أحدًا مِنَ النَّاسِ قال في إثباتِ صَانِعِينِ للعالَمِ متَسَاوِيَينِ، وهذا صحيحٌ لم يقل أحدٌ إن للعالَمِ خالِقَينِ متَسَاوِيينَ، ولا يمكن أن يقول عاقِلٌ ذلكَ أبدًا، يقول: نعم، أعظَمُ ما نقَلُوا في ذَلِك قول الثَّنَوِيَّةِ الَّذين يقُولُونَ بأصْلَي النُّورِ والظُّلمةِ، وأن النورَ خلَقَ الخيرَ، وأن الظُّلمَةَ خلَقَتِ الشَّرَّ، ثم ذكروا لهم في الظُّلمةِ قولَينِ:

أحدهما: أنها محدَثَةٌ فتكون من جملَةِ المَخْلُوقاتِ لَهُ.

والثَّاني: أنها قديمَةٌ لكنَّها لم تفْعَلْ إلا الشرَّ، فكانت ناقصة في ذاتِها وصفاتها ومفعولَاتِها عن النُّورِ.

[٢] لفظ الجلالة: ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعل لِفِعْلٍ محذوفٍ تقْدِيرُه: خَلَقَهُنَّ اللهُ، وهذا إقرارٌ بأن اللهَ وحدَهُ هو الخَالِقُ.

[٣] قوله: «﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ [الزمر:٣٨]»، الجوَاب: لَا.

أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِۦٓ[١] قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [الزمر:٣٨][٢].

وَقَالَ تعالى: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ [المؤمنون:٨٤-٨٩]، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون:٩١]، وَقَالَ: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾[٣].

---

[١] قوله: «﴿أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِۦٓ﴾» لَا.

[٢] قوله: «﴿قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾» حَسْبِيَ: بمَعْنَى كافيَّ.

[٣] كلُّ هَذِه الآياتِ تَدُلُّ على أن المشركينَ كانوا مُقرِّينَ بأنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وحْدَهُ هو الخَالِقُ.

إذن ما اتَّخَذَ اللهُ من ولَدٍ، لماذا لم يتَّخِذْ ولَدًا؟

لِكمال غِنَاهُ عن الوَلَد؛ ولأنه ليس كمثلِهِ شيءٌ فهو مُسْتَغْنٍ عن الولَدِ، لا يحتاجُ إلى الولدِ ليُعِينَهُ، ولا ليسَاعِدَهُ ولا ليُبقي ذِكْرَه، وكذَلِك أيضًا لا شبيهَ له، والولدُ لو فُرِضَ أن له ولدًا لكان مشَابهًا له، واللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مُنزَّه عن ذَلِك.

قوله: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ ﴿مِنْ﴾ حرفُ جَرٍّ زائدٌ لا محلَّ له مِنَ الإعرابِ، لكنه من حيثُ المَعْنى هو للتَّوكيدِ؛ يعني: وما كان معه إله ﴿إِذًا﴾ هذا التنوين عِوضٌ

.....

عن جملَةٍ، تقديرُ هذه الجملة: إذ لو كان مَعهُ إله لذَهَب كلُّ إلهٍ بما خلَقَ، ولعَلَا بعضهم على بعْضٍ، سبحانَ الله عمَّا يصِفُونَ.

لو كان مَعَهُ إله لوجَبَ أن ينْفَرِدَ كلُّ إلهٍ بما خَلَقَ؛ إذْ يكونُ للعَالم خالقينَ، وكل خالِقٍ ينْفَرِدُ بما خلَقَ ونحن الآن نُشاهِدُ أنَّ الكونَ شيءٌ واحدٌ، ليس فيه تنَاقُضٌ، ولا يُصَادِمُ بعضُه بعضًا، ولا يُخالِفُ بعضه بعضًا، مما يدُلُّ دلالَةً قطْعِيَّة على أن مُدبِّره واحد، لو كان هُناك إلهَانِ كان كلُّ واحدٍ له مملكة مثلما نَرى في ملوكِ الدْنيا، كل مَلِكٍ له مملَكَة وحدَه، لا يمكن أن يدْخُلَ عليه الآخَرُ ولا هو يدْخُلُ على الآخر، ونحن نشاهِدُ الآن الكون أنه شَيء واحدٌ لا تَنَاقُض فيه.

قوله: ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ هذا أيضًا ضَرُورِيٌّ، ضرُورِيٌّ أن يعْلُوَ بعضهم على بعضٍ، فإذا عَلا بعْضُهم على بعضٍ فمن الَّذي يسْتَحِقُّ أن يكون إلهًا؟

العالي هـو الَّذي ينْبَغِي أن يكون إلـهًا، وحينئذٍ ينْفَرِدُ بالألُوهِيَّةِ، وإن عجزَ بعضُهُم أن يعْلُـوَ بعضًا صـارَ الجميعُ غيرَ صالِحِينَ للألوهِيَّةِ؛ لأنَّ الإله لا يكونُ عاجزًا.

فتبَيَّن بهذه الآيَة الكريمةِ امتِنَاعُ تعدُّد الإلهة منْ وجْهَيْنِ:

الوجه الأوَّلُ: لو تعدَّدت الآلهَةُ لذَهَب كلُّ إلهٍ بما خلَقَ، ونحْنُ نرى الآن أن الكونَ شيءٌ واحدٌ لا اضطرابَ فيه، الشمْسُ تطْلُعُ على ما هيَ عليه، وتَغِيبُ، ولا أحدَ يقول: أنا أريدُهَا اليوم ألا تَطْلُعَ، القمر كذَلِك، نجدُ أن الكونَ كلَّهُ واحدٌ، ولسنا مُكلَّفين بما لا نَعْلَمُ، كل ما نَعْلَمُه من الكون نجِدُ أنه يُدبَّرُ بتدْبِيرِ إلهٍ واحدٍ.

وَبِهَذَا وَغَيْرِهِ يُعْرَفُ مَا وَقَعَ مِن الْغَلَطِ فِي مُسَمَّى التَّوْحِيدِ، فَإِنَّ عَامَّةَ الْمُتَكَلِّمِينَ الَّذِينَ يُقَرِّرُونَ التَّوْحِيد فِي كُتُبِ الْكَلَامِ وَالنَّظَرِ، غايتُهُمْ أَنْ يَجْعَلُوا التَّوْحِيد ثَلَاثَةَ أَنْوَاعٍ، فَيَقُولُونَ:

هُوَ وَاحِدٌ فِي ذَاتِهِ لَا قَسِيمَ لَهُ[١].

وَوَاحِدٌ فِي صِفَاتِهِ لَا شَبِيهَ لَهُ.

وَوَاحِدٌ فِي أَفْعَالِهِ لَا شَرِيكَ لَهُ.

الشَّيء الثَّاني: مما يدُلُّ على الامْتِنَاعُ أنهم لو تَعدَّدُوا وذهَبَ كلُّ إلهٍ بما خلَقَ، لعَلا بعْضُهم على بعضٍ، أو عَجَزَ بعضُهم عن بعضٍ، فإنْ عَلا بعْضُهم على بعضٍ فالعَالِي هُو الإلِهُ والمعلوُّ عليه ليس بإلهٍ، وإن عَجَزَ كلٌّ منهما على الآخر فكُلٌّ منهما لا يصْلُح إلهًا، وهذا دليلٌ قطْعِيٌّ من أوضِحِ ما يكونُ.

[١] قوله: «هُوَ وَاحِدٌ فِي ذَاتِهِ لَا قَسِيمَ لَهُ». معْنَى لا قِسَيمَ له: أنه لا ينْقَسِمُ، واحد في ذاتِهِ لا يمكِنُ أن ينْقَسِمَ، «وَوَاحِدٌ فِي صِفَاتِهِ لَا شَبِيهَ لَهُ»، صفاتُهُ تختَصُّ به، «وَاحِدٌ فِي أَفْعَالِهِ لَا شَرِيكَ لَهُ».

كذَلِك أيضًا أفعالُهُ لا أحدَ يشَارِكُه فيها هو الَّذي يخْلُقُ السَّمواتِ والأرضِ، وهو الَّذي يُحْيِي ويُمِيتُ ويُعِزُّ ويُذِلُّ إلى آخِرِه، هذا الكلامُ إذا قرأتَه تظنُّ أنه غايَةُ التَّوْحِيدِ.

لكن يبقى علينا توحيدٌ مهِمٌّ، التَّوْحِيدُ الَّذي بُعِثت به الرُّسلُ إلى الآن لم تُقِرُّوا بِهِ، وهو أنه واحدٌ في أُلوهِيَّتِهِ؛ لأنَّ توحيدَ الأُلوهيَّةِ الآن ساقط على رأيِ هؤُلاءِ، ولهذا يقولُ: «وَأَشْهَرُ الْأَنْوَاعِ الثَّلَاثَةِ عِنْدَهُمْ هُوَ الثَّالِثُ، وَهُوَ «تَوْحِيدُ الْأَفْعَالِ وَهُوَ أَنَّ خَالِقَ الْعَالَمِ وَاحِدٌ». وهو أن خالِق العَالم واحِدٌ.

وَأَشْهَرُ الْأَنْوَاعِ الثَّلَاثَةِ عِنْدَهُمْ هُوَ الثَّالِثُ وَهُوَ «تَوْحِيدُ الْأَفْعَالِ»، وَهُوَ أَنَّ خَالِقَ الْعَالَمِ وَاحِدٌ[١].

وَهُمْ يَحْتَجُّونَ عَلَى ذَلِكَ بِمَا يَذْكُرُونَهُ مِنْ دَلَالَةِ التَّمَانُعِ وَغَيْرِهَا، وَيَظُنُّونَ أَنَّ هَذَا هُوَ التَّوْحِيد المَطْلُوبُ، وَأَنَّ هَذَا هُوَ مَعْنَى قَوْلِنَا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ. حَتَّى يَجْعَلُوا مَعْنَى الْإِلَهِيَّةِ الْقُدْرَةَ عَلَى الِاخْتِرَاعِ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ مِن الْعَرَبِ الَّذِينَ بُعِثَ إِلَيْهِمْ مُحَمَّدٌ ﷺ أَوَّلًا لَمْ يَكُونُوا يُخَالِفُونَهُ فِي هَذَا[٢].

بَلْ كَانُوا يُقِرُّونَ بِأَنَّ الله خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، حَتَّى إِنَّهُمْ كَانُوا يُقِرُّونَ بالقُدْرَة أيضًا، وَهُمْ مَعَ هَذَا مُشْرِكُونَ[٣].

---

[١] أشهَرُ الأنواعِ الثَّلاثَةِ هو توحيدُ الأفعالِ عندَهُم؛ معناه: أعْلَى شَيء من أقسَامِ التَّوْحِيدِ عنْدَهُم توحيدُ الأفعالِ، عنْدَنَا نحنُ أهلَ السُّنَّةِ والجماعَةِ نقولُ: التَّوْحِيدُ ثلاثَةُ أقسامٍ:

توحيدُ الرُّبُوبِيَّةِ، وهو توحيدُ الأفعالِ.

وتوحيد الألُوهِيَّةِ، وهو توحيدُ العِبادَةِ، أي: توحِيدُكَ أنتَ بأفْعالِكَ، تُوحِّدُ الله بأفعَالِكَ.

وتوحيدُ الأسْماءِ والصِّفَاتِ، توحِّدُ اللهَ تعالى بأسمائِهِ وصِفاتِهِ.

[٢] يعْنِي: يخَالِفُونَ الرَّسولَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

[٣] كانوا يُقرُّونَ بأن اللهَ خالقُ كلِّ شيءٍ، حتى إنهم كانُوا يُقرُّون بالقُدْرَةِ أيضًا

.....

ومع هذا مشْرِكُونَ، يعني: مع كونِهم يُقرُّون بأن اللهَ هو الخَالِقُ وحْدَهُ، ويُقِرُّونَ بقدَرْةِ الله، وأنه هو الَّذي بِيدِهِ ملكوتُ كلِّ شيءٍ، مع هذا هم مشركون.

فتَبيَّنَ أن هذا التَّوْحِيدَ الَّذي سلكَهُ هؤُلاءِ النُّظَّارُ وأهلُ الكَلام أنه توحيدٌ قاصِرٌ؛ لأنَّهم أسقَطُوا رُكنًا من أهمِّ أركانِ التَّوْحِيد، وهو: توحيدُ الله في أُلُوهِيَّتِهِ في العبادَةِ؛ بمعْنَى أن لا نعبدَ سِواه، فقد تبيَّن أن ليس في العَالَم من يُنازِع في أصلِ هذا الشِّرك.

ولكن غاية ما يُقال: إن مِنَ النَّاسِ من جَعَل بعضَ المَوْجُوداتِ خَلْقًا لغيرِ الله كالقَدَرِيَّةِ وغيرهم، القدريَّةُ جعلوا بعضَ المَوْجُودات خلْقًا لغيرِ اللهِ، والمُرادُ بالقدرِيَّة هنا: الَّذين يُثْبِتُونَ القَدَر أو ينفُون القَدَر؛ لأنَّ الَّذين يُثبتون القدَر نوعان: معتدِلون وغالُونَ:

المعتدلون: أهلُ السُّنَّةِ والجماعَةِ.

والغالُونَ: الجَبْرِيَّةُ الَّذين يقُولُونَ: إن الإنسانَ مُجْبرٌ، قابلَهم في ذَلِك القدريَّةُ الَّذين يُنكِرُونَ قدَرَ اللهِ بأفعالِ العبادِ، ويقُولُونَ: إن أفعالَ الإنسَان ليست مخلوقَةً للهِ، من الَّذي خلقها؟ خلَقَها الإنسانُ، القدريةُ يقُولُونَ: أفعالُكَ ما خَلَقَها الله، أنتَ الَّذي خَلَقْتَهَا.

هل نقول: إنهم أثبَتُوا مع اللهِ خالِقًا؟ المُؤلِّف أرادَ أن يُبَيِّنَ أن حتى على قولِ هؤُلاءِ لا يُثْبِتُونَ مع اللهِ خالِقًا، ولهذا قال: لكن هؤُلاءِ يُقِرُّون بأن اللهَ خالقُ العبادِ وخالقُ قُدْرَتِهم، وإن قالُوا: إنهم خلَقُوا أفعالَهم.

الكَلام هنا يقـول: ليسَ في العالَـم من يقُـولُ: إن للعالَـمِ خالِقَينِ متَسَاوِيَينِ، إذن

لَيْسَ فِي الْعَالَمِ مَنْ يُنَازِعُ فِي أَصْلِ هَذَا الشِّرْكِ؛ وَلَكِنْ غَايَةَ مَا يُقَالُ: إِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ جَعَلَ بَعْضَ الْمَوْجُودَاتِ خَلْقًا لِغَيْرِ اللهِ كَالْقَدَرِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ؛ لَكِنَّ هَؤُلَاءِ يُقِرُّونَ بِأَنَّ اللهَ خَالِقُ الْعِبَادِ وَخَالِقُ قُدْرَتِهِمْ وَإِنْ قَالُوا إِنَّهُمْ خَلَقُوا أَفْعَالَهُمْ.

وَكَذَلِكَ أَهْلُ الْفَلْسَفَةِ وَالطَّبْعِ[١] وَالنُّجُومِ[٢] .....

فجميعُ العالم متَّفِقُونَ على أن هذا الشِّرك الَّذي يُثْبِتُ معَ الله شريكًا في أفعالِه مساويًا له فَهو مُشركٌ.

هل في العالم من يجْعَلُ شيئًا مخلوقًا لغيرِ اللهِ؟

الجوَاب: نعم، أفعالُ العباد عندَ القَدَرِيَّة مخلوقةٌ لغيرِ اللهِ.

مَن خالِقُها؟ يقُولُونَ: الإِنسَان، لكن مع ذَلِك يقُولُونَ: نَفْسُ الإِنسَان الَّذي خَلَقَ هذه الأفعال مخلوقٌ لله عَزَّوَجَلَّ، قُدرَتُه مخلُوقَةٌ للهِ.

في الحَقِيقَة أن خالقَ الأصلِ خالِقٌ للفَرْعِ ما دام أن الإِنسَان نفْسَهُ مخلوقٌ لله وقُدْرَتُه مخلوقَةٌ لله، إذن فالأفعال الناتجة عنْه وعن قُدْرتِهِ تكون مخلوقَةً لله، لكن هم يُنكرون ذَلِك، يقول: الإِنسَان خالِقٌ لِفِعْلِه، فعلى كل حالٍ ليس في العالَم مَن يقول: إن للعالَم مخلُوقَين أو خالِقَيْن متساويينِ أبدًا.

[١] قوله: «أَهْلُ الْفَلْسَفَةِ وَالطَّبْعِ»، ما معْنَى الطبْعِ؟ الَّذين يجْعَلُونَ الأمورَ تتفاعَلُ بطبائعِهَا.

[٢] كذَلِك أصحابُ النجومِ الَّذين يجعَلُونَ النُّجومَ لها تأثيرٌ في الخَلْقِ، يقُولُونَ: إن هـذا النَّجْـم الفـلاني يأتـي بالمطَـرِ وما أشبْه ذلِكَ أو هذا النجـم الفلاني إذا ولِـدَ فيه

الَّذِينَ يَجْعَلُونَ بَعْضَ المَخْلُوقاتِ مُبْدِعَةً لِبَعْضِ الْأُمُورِ، هُمْ مَعَ الْإِقْرَارِ بِالصَّانِعِ يَجْعَلُونَ هَذِهِ الْفَاعِلَاتِ مَصْنُوعَةً مَخْلُوقَةً، ولَا يَقُولُونَ: إِنَّهَا غَنِيَّةٌ عَن الخَالِقِ مُشَارِكَةٌ لَهُ فِي الخَلْقِ[١]، فَأَمَّا مَنْ أَنْكَرَ الصَّانِعَ، فَذَاكَ جَاحِدٌ مُعَطِّلٌ لِلصَّانِعِ، كَالْقَوْلِ الَّذِي أَظْهَرَ فِرْعَوْنُ[٢].

الإِنسَان يكون سعِيدًا، أو إذا ولِدَ فيه يكونُ شقيًّا، أصحابُ هذه يجعلونَ بعضَ المَخْلُوقاتِ مُتَّبِعَةٌ لبعضِ الأمور، مثلًا يجعلون الطبيعة تتفاعلُ وبعضها يُنشئ بعضًا، النجومُ يجعلُونَها تفْعَلُ وتُسْعِدُ الإنسانَ أو تُشقِيه، وتُنزِلُ المطر أو تمنَعُهُ، ومع ذَلِك يجعلونَ هذه الفاعلات مصنوعة مخلوقة، لا يقولُونَ: إنها غَنِيَّةٌ عن الخَالِق بل مشارِكَةٌ له في الخلْقِ.

[١] كأن المؤلِّفَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ الآن يريدُ أن يُجِيبَ عن شُبْهةٍ، خلاصَةُ الشُّبهةِ: أنه قرَّر في أوَّلِ كلامِهِ أنه لا يُوجد من يقولُ: إن للعالم خالِقَينِ متَسَاوِيَيْنِ:

- وأورَدَ على نفْسِه قضِيةَ الثَّنَوِيَّةِ، وأجاب عنها.
- وأوردَ على نفسه قضية القَدَرِيَّةِ، وأجاب عنْها.
- وأورد على نفسه قضيةَ أهل الطَّبْعِ والنُّجومِ، وأجاب عنها.

[٢] قوله: «**فَأَمَّا مَنْ أَنْكَرَ الصَّانِعَ فَذَاكَ جَاحِدٌ مُعَطِّلٌ لِلصَّانِعِ، كَالْقَوْلِ الَّذِي أَظْهَرَ فِرْعَوْنُ**» جاحدٌ، هذه الحقيقةُ غيرُ مشْرِكٍ؛ لأنَّه جاحِدٌ، قال الله تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل:١٤]، هذا أصْلًا لم يُثْبِتِ الخَالِق يقولُ عن نفسِه: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ ولم يَقُلْ: أنَا واللهُ سواء، بل قال هُو نَفْسُه الربُّ، وهذا أيضًا قدَّرَهُ المُؤلِّف سؤالًا وأجاب عنه، كأنه قيل: فِرعونُ أنكرَ الخَالِقَ. قال: نعم، لكن لم يجعله شَرِيكًا،

وَالْكَلَامُ الْآنَ مَعَ الْمُشْرِكِينَ بِاللهِ الْمُقِرِّينَ بِوُجُودِهِ، فَإِنَّ هَذَا التَّوْحِيدَ الَّذِي قَرَّرُوهُ لَا يُنَازِعُهُمْ فِيهِ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ، بَلْ يُقِرُّونَ بِهِ مَعَ أَنَّهُمْ مُشْرِكُونَ، كَمَا ثَبَتَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْإِجْمَاعِ، وَكَمَا عُلِمَ بِالِاضْطِرَارِ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ[1].

والقضِيَّةُ الَّتي أثبَتَها من قَبْلُ أنه لم يقُلْ أحدٌ من النَّاس إن للعالَمِ خالقينِ حتى فرعون لم يَقُلْ: إن للعالَمِ خالقين، بل أنكر الخَالِق إطلاقًا، وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص:٣٨].

إذن فالشُّبْهَةُ أنه لم يَقُلْ أحَدٌ بأنَّ للعالَمِ خالِقَين متَسَاوِيَيْنِ؛ لأنَّ متساويين هما اللذان يُصْلُحَانِ أن يكونا كذَلِك. ثم قال:

[١] نقول: أنتُمْ يا أهلَ الكلامِ توحيدُكُم هذا؛ وهو: أن اللهَ واحِدٌ في ذاتِهِ لا قَسِيمَ له، واحدٌ في صفاتِهِ لا شبيهَ له، واحدٌ في أفْعالِهِ لا شَريكَ له. هذا الَّذي يزْعُمونَهُ غايةَ التَّوْحِيدِ، وأن هذا هو التَّوْحِيد الَّذي جاءتْ به الرُّسُل، وهو الَّذي كُلِّف به الإنسانُ، نقول: هذا التَّوْحِيدُ الَّذي أنتُمْ جعَلْتُموه توحيدًا هو توحيدُ المشْرِكِينَ.

لم يقُل أحَدٌ مِنَ المشْرِكِينَ: إن الله ينقَسِمُ، ولا أن الله له شَبِيهٌ في صِفاتِهِ، ولا أن الله له شَريكٌ في أفعَالِه، هذا التَّوْحِيدُ الَّذي هو تَوحيدُ المشْرِكينَ هلْ أخرجَهُم مِنَ الشركِ؟

الجوَاب: لا، ظَلُّوا مشْرِكينَ مع أنهم يُوحِّدون هذا التَّوْحِيدُ الَّذي زعَمْتُمْ أنه هو التَّوْحِيدُ، وهذا شيءٌ معْلُومٌ بالضرورةِ، كما قال شيخُ الإسلامِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

فالمشركونَ باللهِ مُقِرُّونَ بوجودِهِ، المشركون بالله في العِبادَة، المشركون بالله في ألوهِيَّتِهِ وعبادَتِهِ، هم مشركونَ مثلُ الكفَّارِ أنفسِهِم وغيرهم، من سئل عن الرُّبُوبِيَّةِ أقَرُّوا به، فهُم يُقِرُّونَ بالله وبوجودِهِ وبُرُبوبيَّتِهِ لكن ينكرونَ توحيدَه في العبادَةِ.

.....

لو أخذنا تعريفَ التَّوْحِيد على حسبِ ما قالَهُ هؤُلاءِ المتكلِّمُونَ لكان هؤُلاءِ الَّذين يُقرُّون بِهِ ويعْبُدُونَ غيرَهُ لكانوا موحِّدِينَ، والأمر ليس كذلِكَ، فالله تعالى جعَلهُم مُشركِينَ، وأجمعَ المسلِمُونَ على أنهم مشْرِكُونَ، ومع ذَلِك هم يدَّعونَ التَّوْحِيدَ.

المهم: الآن نعرفُ أن هذا التَّوْحِيدَ الَّذي ذَكَرَهُ أهْلُ الكلامِ والنَّظَرِ هو توحيدٌ غيرُ صَحيحٍ؛ لأنَّهم خافُوا، هم لو زَادُوا عبارة: وواحِدٌ في أُلوهِيَّتِهِ لا يُعبدُ سِواه. لو قالوا هذا لكان توحيدُهُم صَحِيحًا، لكن هُمْ قَصَروا التَّوْحِيد مع الأسفِ على الأفعالِ والصِّفَات.

وأما مسألةُ: واحِدٌ في ذَاتِهِ، لا قسيمَ له. فما عَلِمْنَا أحَدًا قالَهُ، ولا حاجةَ إلى ذِكْره؛ لأنَّه معلومٌ أن الرَّبَّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ليس بأعضاءَ، لم يقُل أحدٌ بهذا، لكن هم يُرِيدُونَ أن ينَمِّقُوا الكَلام، فبدلا من أن يقالَ: إن أهلَ السُّنَّةِ والجماعةِ يجعَلُونَ التَّوْحِيد ثلاثةَ أقسامٍ، هم يقُولُونَ: التَّوْحِيدُ ثلاثة أقسام:

واحدٌ في ذاتِهِ، واحدٌ في صفاتِهِ، وواحد في أفعالِه، لكن هُناك فرْقٌ بين الثَّلاثةِ والثَّلاثةِ.

فالمشركون يُقِرُّونَ بذلك مع أنهم مشركونَ «**كَمَا ثَبَتَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْإِجْمَاعِ وَكَمَا عُلِمَ بِالِاضْطِرَارِ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ**».

على الوجه الَّذي ذَكَرْنَا توحيدُ الأفعالِ يعني: عندَهم الآن الأنواعَ الثَّلاثة: عندَهُم توحيدُ الذَّاتِ، وتوحيدُ الصِّفَاتِ، وتوحِيدُ الأفعالِ؛ توحيدُ الذَّاتِ: لا قسيمَ له، الأفعالِ: لا شَرِيكَ له، الصِّفَاتِ: لا شَبِيهَ له.

وَكَذَلِكَ النَّوْعُ الثَّانِي- وَهُوَ قَوْلُهُمْ: لَا شَبِيهَ لَهُ فِي صِفَاتِهِ-[١] فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي الْأُمَمِ مَنْ أَثْبَتَ قَدِيمًا مُمَاثِلًا لَهُ[٢] فِي ذَاتِهِ[٣] سَوَاءٌ قَالَ إِنَّهُ يُشَارِكُهُ أَوْ قَالَ: إِنَّهُ لَا فِعْلَ لَهُ، بَلْ مَنْ شَبَّهَ بِهِ شَيْئًا مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ فَإِنَّمَا يُشَبِّهُهُ بِهِ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ.

وَقَدْ عُلِمَ بِالْعَقْلِ امْتِنَاعُ أَنْ يَكُونَ لَهُ مِثْلٌ فِي الْمَخْلُوقَاتِ يُشَارِكُهُ فِيمَا يَجِبُ أَوْ يَجُوزُ أَوْ يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يَسْتَلْزِمُ الجَمْعَ بَيْنَ النَّقِيضَيْنِ كَمَا تَقَدَّمَ[٤].

تكلَّمَ المُؤلِّف عن النَّوعِ الأوَّلِ الَّذي هو أشهرُ الأنواع عنْدَهم، وهو توحِيدُ الأفعْالِ، وبيَّن أنه باطِلٌ، إن الاقتصارَ عليه باطِلٌ، وأن المشْرِكينَ الَّذين وصَفَهم اللهُ بالشِّركِ وأجمعتِ الأُمَّةُ عليه كانوا يُوحِّدونَ الله تعالى، هذا التَّوْحِيدَ الَّذي قالَهُ.

[١] الكَلام ليسَ في توحِيدِ الذَّاتِ الآن، الكلامُ في تَوحِيدِ الصِّفَاتِ.

[٢] في نسخَةٍ ثانِيَةٍ: «**مُمَاثِلًا لَهُ فِي الْاسْتِوَاءِ**»، صحيحٌ الاستواءُ صِفَةٌ مِنَ الصِّفَاتِ، لكن قصْرُهُ على الاستواءِ مُشْكِلٌ أيضًا، لو قال: لا قَسِيمَ له في صفاتِهِ.

[٣] قوله: «**لَيْسَ فِي الْأُمَمِ مَنْ أَثْبَتَ قَدِيمًا مُمَاثِلًا لَهُ فِي ذَاتِهِ**». الظَّاهِرُ -والله أعلم- الصَّواب: (في صِفَاتِهِ)؛ لأنَّ الكلامَ فِيهِ نظَرٌ، وهو قولُهُ: لا شَبِيهَ له في صفاتِهِ سواءٌ قال إنه يشارِكُه أو قال إنه لا فِعْلَ له، بل مَن شَبَّه شيئًا من مخلوقاتِهِ فإنما يشَبِّهُهُ في بعضِ الأُمورِ.

[٤] لو قلنا: إن لله تعالى مشابهًا يُشارِكُه فيما يجِبُ ويجوزُ ويَلْزَمُ، لزِم الجمعُ بين النَّقِيضَيْنِ، ولكان الخَالِقُ واجبَ الوُجودِ، والمَخْلُوقُ واجِبَ الوُجودِ، هذا الجمع بين النَّقِيضَيْنِ، أو كان الخَالِقُ جائزَ الوُجودِ، والمَخْلُوق جائزَ الوُجودِ، هذا مُمْتَنع، أو كان يجوزُ على الخَالِقِ النقْصُ والعَجْزُ كما يجوز على المَخْلُوق، وهذا أيضًا مُمْتَنِعٌ.

وَعُلِمَ أيضًا بِالْعَقْلِ أَنَّ كُلَّ مَوْجُودَيْنِ قَائِمَيْنِ بِأَنْفُسِهِمَا فَلَا بُدَّ بَيْنَهُمَا مِنْ قَدْرٍ مُشْتَرَكٍ، كَاتِّفَاقِهِمَا فِي مُسَمَّى الْوُجُودِ وَالْقِيَامِ بِالنَّفْسِ[١].

وَالذَّاتِ وَنَحْوِ ذَلِكَ[٢].

فَإِنَّ نَفْيَ ذَلِكَ يَقْتَضِي التَّعْطِيلَ الْمَحْضَ، وَأَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ إِثْبَاتِ خَصَائِصِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ[٣].

فالمهم: أن الجمعَ بين النَّقِيضَينِ لا يمْكِنُ أن يكون كلٌّ من الاثْنَيْنِ واجبًا بنَفْسِهِ، هذا مستحيل أن يكون كلٌّ منهُما واجبَ الوُجود بنفسِه، هذا تناقُضٌ؛ لأنَّه واجبُ الوُجودِ لَا بُدَّ أن يقابِلَه جائزُ الوجوبِ، أما واجبانِ قديمانِ فهذا شيءٌ مُمْتَنِعٌ؛ لأنَّه جمَعَ بين النَّقِيضَينِ.

[١] أليسا مَوْجُودَينِ؟ إذن اشْتَرَكا في الوُجودِ، لكن هل يلْزَمُ من اشتراكهما في الوُجودِ تَساويهما فيه؟

الجوَاب: لا، قد يكون هذا مَوْجُودًا واجبَ الوُجودِ، والثَّاني مَوْجُودًا جائزَ الوُجودِ، اشتركا أيضًا في القيامِ بالنَّفْسِ أليس كل منهما قائمًا بنفْسِهِ؟ لكن بينهما فرْقٌ، أحدُهُما قائمٌ بنَفْسِهِ استِقْلالًا والثَّاني قائم بنَفسِه بإقامَةِ غيرِهِ لَهُ.

[٢] ومعْنَى الذَّاتِ: أن كُلَّ شَيئينِ قائِمَينِ بأنفُسِهما فكلٌّ منهُما ذاتٌ، فإذن: لَا بُدَّ بضرورةِ العقْلِ من تَسَاوِي كلِّ شيئينِ مَوْجُودين في الأصلِ المشتَرَكِ بينهما، وهو: الوُجودُ والقِيامُ بالنفْسِ والذَّاتِ والاتصافِ بالصِّفَاتِ، وما أشبَه ذلِكَ.

[٣] والعياذُ باللهِ يقُولُونَ: نفْيُ الصِّفَات من تَوحيدِ الله لا يَتِمُّ التَّوْحِيدُ إلا بنَفْي الصِّفَاتِ؛ لأنَّه مرَّ علينا قاعِدَةُ الجهْمِيَّةِ والمعتزلةِ: أن إثباتَ الصِّفَاتِ يستَلْزِمُ التَّشْبِيهَ،